

## مقدمة

المرأة... هي الأم وهي الزوجة، هي المودة وهي الرحمة... هي الرقة وهي الخنان، هي اللذة وهي الشهوة... وقبل كل شيء هي كائن بشري به جميع المتناقضات مثل الرجل، عاشا بالفضيلة والنقيصة، بالحب والكرهية، بالقسوة والتسامح، بالصلف والمرونة، بالأناية والإيثار، بالعنف والسلام.... إلى آخره من غرائز وعواطف، وطباع وسمات، خلق بها الإنسان، وتعايش فيها وبها، في منظومة قائمة على الكفاح والصراع، ينتهي فيها الإنسان إلى ذكرى تؤول إلى الضياع والسيان .

ظهر مصطلح الجنسية Sexism في خمسينيات القرن الماضي من خلال كتب النقد الاجتماعي الفرنسي للتمييز بين جنسى البشر - ذكر وأنثى - ويحدد قيمة ودور كل منهما في الحياة الاجتماعية على أساس الجنس البيولوجى . يذهب هذا الفكر إلى أن جميع الاتجاهات السياسية، والمذاهب الاجتماعية بما فيها الماركسية والشيوعية التى دعت إلى المساواة المطلقة بين الجنسين، يفترضون أن هذه المذاهب تضمنت قدرًا من التمييز بين الجنسين، كلها كانت فى صالح الرجل، وتتجه إلى تحقير النساء وتقييد دورهن فى حياة المجتمع وقصره على إمتاع الرجل وتسليته، وخدمته المنزلية، وإنجاب الأطفال، وإرضاعهم دون الإشراف على تربيتهم . ادعى هذا الفكر أن اتجاهات التمييز الجنسى كامنة فى اللاشعور، عميقة الجذور منذ قدم التاريخ بسبب المصالح الشخصية للرجل . كما ادعى هؤلاء الاجتماعيون أن هذا الفكر يتركز على تحويل المرأة إلى موضوع جنسى فتصبح المرأة مجالاً للتحريم أو الانتهاك ، وكلاهما وجهان لموقف واحد . يأخذ مصطلح « التصنيف الجنسى » Gendér، نفس المعنى من حيث تصنيف البشر حسب الجنس، وما يترتب على هذا التصنيف من دوافع اجتماعية .

يشير مصطلح تسلط الرجال Patriarchy إلى وضع السلطة والسيطرة الذي يتمتع به الرجال بالنسبة للنساء عبر التاريخ المعروف للمجتمعات الإنسانية . كتب سامى خشبة في كتاب «مصطلحات فكرية» عن تعريف هذا المصطلح : ( رغم أن المصطلح أخذ من كلمتين يونانيتين كانتا تشيران إلى نظام قبائلي وأسرى في اليونان القديمة، عرف باسم نظام : حكم الأب .... فإن المصطلح يشير منذ الستينات - من القرن العشرين - في كتابات الحركة الأنثوية في الغرب إلى معنى حكم الذكور، وسيطرتهم وتسلطهم على المجتمعات بشكل عام ، وعلى النساء خصوصاً في العالم كله ، وفي هذه الكتابات يبدو « تسلط الرجال » أمراً واقعاً ، وحالة فعلية قائمة تتجلى في سيطرة الرجال على كل المؤسسات الاجتماعية، كما يبدو تسلط الرجال في صورة « أيديولوجيا » ، ومفاهيم مطلقة تسيطر على عقول البشر ، وتجعلهم يعتقدون أن الأمر الواقع هو الأمر الطبيعي ) . شاعت هذه المفاهيم بعد ما نشرت الكاتبة الأمريكية كاترين ميللت في عام ١٩٦٩ كتابها « سياسات الجنس » ، قامت فيه بتحليل ظاهرة التصنيف الجنسي في اللغة، بمعنى التمييز بين الذكر والأنثى، وارتباطه بتطور المجتمعات والأديان وتكوين الأسرة، وارتباط هذه المجالات بما أطلق عليه علماء الأنثروبولوجيا اسم « الانقلاب الذكري » ، الذي قام به الرجال لانتزاع السلطة في الأسرة من النساء، بعد أن كن قد اخترعن الزراعة وتخزين الطعام، فاستقر الرجل - نسبياً - ولم يعد يقضى معظم وقته في الصيد، بعيداً عن الأسرة . بدأ علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع التاريخي يرفضون فكرة التطور الطبيعي من نظام سيطرة النساء إلى نظام سيطرة الرجال، وذهبوا إلى أن القهر الذكوري مرتبط بالتفوق العضلي للرجال ثم منع المرأة عن العمل والتعليم والرياضة .... إلى آخره ، مما أدى إلى السيطرة الكاملة للرجل ، حتى ظهرت الموجة الجديدة بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل .

في مقابل مصطلح تسلط الرجال، وجد مصطلح سيطرة النساء Matriarchy الذي يعنى قبض المرأة على زمام أمور الأسرة والعمل، ويقتصر دور

الأب على مساعدة الأم على الإنجاب . غير أن المصطلح يستخدم في الوقت الحالى بمعنى تحرير المرأة من سيطرة الرجل، وحصونها على حق التصرف فى شئونها الخاصة، وإنشاء منظمات نسائية تهتم بشئونها وتراعى حقوقها. يستخدم هذا المصطلح أيضا فى الإشارة إلى الشخصيات النسائية التى تحتل مكانة رفيعة فى مجال الأعمال أو فى الأنشطة الاجتماعية، أو إشارة إلى المجتمعات التى ينتسب فيها الأبناء إلى الأمهات فىكون تسلسل النسب أموياً وليس أبوياً مثل المجتمع المصرى الفرعونى، أو إشارة إلى بعض نظم القبائل البدائية التى تكون فيها السيطرة للنساء.

يظهر الطفل على وجه الحياة حاملاً جيناته الوراثية وغرائزه الفطرية، ثم يبدأ بعد ذلك فى اكتساب الخبرات الإنسانية من الوالدين . يتلقى الإنسان منذ الصغر التراث الخلقى والاجتماعى الذى خلقه الأسلاف. والطفل من الناحية البيولوجية غير مهياً للنظام الحضارى أو للمدينة التى تحكمها القيم الأخلاقية والقوانين الوضعية لأن غرائزه الكامنة فى جيناته تهيئه فقط للمواقف التقليدية ولا تحتوى إلا على الاستجابة للمثيرات وإشباع الاحتياجات الأولية مثل الأكل والشرب والجنس . ولد الإنسان وهو لايعرف شيئاً عن الفضيلة أو الرذيلة، أو عن الأخلاق أو الإثم والخطيئة، أو غيرها من التعبيرات الكثيرة التى صنعها وشكلها الإنسان . ومع التطور التاريخى، وتفاعل الملل الإنسانى من الرتابة والتكرار، ومع معاناة الإنسان من فوضى العلاقات الإنسانية التى لم يحكمها رادع أو جزاء، بدأ الإنسان فى التفكير وإعادة النظر فى سلوكه وأسلوب حياته، حينئذ ظهرت الفلسفة فى صورتها الأولية حول محور الأخلاق والقيم، والخطأ والصواب، ومع تطور المدنية تشكلت وطبقت القوانين الوضعية قبل ظهور الشرائع السماوية التى أنزلها الخالق على عباده . لم يلتزم الإنسان بدين واحد، أو قيم ثابتة أو أخلاق جامدة، وإنما أخذ مع مرور الأيام فى إعادة تشكيلها وتحويرها ثم إعادة تشكيلها ، لتتشعب تجارب الإنسان وتنقسم إلى ثقافات مختلفة بكل ما فيها من عادات وتقاليد وقيم ومعايير أخلاقية ، .... ومنظور اجتماعى إلى وضع المرأة .

إذا كانت الأسطورة هي قصة رمزية - تكون في أغلب الأحيان خرافية أو غير حقيقية - فإن الأدب الشعبي نتاج تفاعل الإنسان في واقعه الاجتماعي والثقافي والسياسي ، ويأتي تراث الأجيال السابقة ليعكس مخزون هذه الأجيال على العادات والتقاليد والقيم السائدة . احتلت المرأة في الأدب الشعبي العربي / المصري مكانة أدنى كثيرا من مكانة الرجل ، فيتمثل دور المرأة في القصص الشعبية في وظيفتها التي تستمدتها من كونها أنثى ، فاحتلت أدوار : الحبيبة، والأم والحماة ، مركز الصدارة في الغالبية العظمى من القصص الشعبية ، بينما تمثلت الأدوار الأخرى مثل المرأة العاملة في العصر الحديث ، وبرز دور المرأة المقاتلة في القصص التي تدور حول المعارك والغزوات التي دارت في عصر ظهور الإسلام ، حيث كانت المرأة عنصرا إيجابيا مشاركا في معظم الأحداث . تعتبر ألف ليلة وليلة من أكثر المؤلفات الغنية بالأدوار التي اضطلعت بها المرأة . ارتبط دور المرأة العاشقة في الأدب الشعبي بالخيانة ونسج المكائد ، ووضع الحيل لتصل إلى حبيبها أو عشيقها ، حتى وإن كان ضحية هذه المكائد الزوج . وفي الأسطورة تتضح نظرة المجتمع وفلسفته في الحياة ، وما وصل إليه خياله وأوهامه . في قديم الزمان حاول الرجل أن يفهم طبيعة المرأة ففشل ، فأخذ ينسج حولها الأساطير لينال منها ، ويفرغ الشحنة الانفعالية التي تسببت فيها المرأة . حتى العلم الحديث قد ساعد على ترسيخ فكرة دونية المرأة ، فالنساء كما ذهب عالم الاجتماع ليفي شتراوس هن أول ما استعمل في المقايضة كبديل للنقود ، أو كما أشاع علماء الأنثروبولوجيا بأن الذكور في العصور القديمة كانوا يجرون في البراري والأدغال بحثا عن أنثى شاردة لاغتصابها .

تدور معظم الأمثال الشعبية المصرية المتعلقة بالمرأة حول كونها أنثى مرتبطة بالرجل ، دون اعتبار لقدراتها كإنسان . تنصب هذه الأمثال على العلاقة الزوجية والأمومة والإنجاب وطاعة الزوج ، وتؤكد هذه الأمثال على القيم السائدة في المجتمع من تعظيم دور الذكر وتفضيله على الأنثى ، والاهتمام بالذات الجسدية لدى المرأة دون العقل والنبوغ والذكاء . وفي المقابل ، كانت أكثر الأسباب التي تحث

على الحيل الدفاعية شيوعاً لدى النساء هو الاحتياج، والخوف من فقدان الحبيب أو الزوج. تتخذ الأغنية الشعبية - المرتبطة بالمرأة - جسد المرأة ولون بشرتها كنقطة انطلاق للتعبيرات المتباينة، للتأكيد على القيم الاجتماعية السلبية التي يجيا من خلالها محتمنا رغم تطور وضع ومكانة المرأة. كتبت الدكتورة عزيزة السيد في هذا المجال : ( إنها في تعبيرها عن مضمون القيم وغيرها إنما تحاول أن تبرز قيمة المرأة من خلال صفاتها الجسدية فحسب . فتكون محور المساومة في عملية تقدير المهر ، وفي المفاضلة بين رجل برجل آخر . وجدير بالذكر هنا ، ما تذكره هذه الأغاني من رغبة جنسية صريحة حتى في أغاني القرى الصعيدية المتزمتة ، وبنفس القيمة - وهي الجسد - تحصل المرأة على ما تريد ، أو تفض منازعاتها مع الزوج ) .

تساوى التراث الشرقي مع التراث الغربي - حتى منتصف القرن الماضي - في منظوره الملىء بالغدر والشك والخيانة من جهة المرأة ، حتى إن الفيلسوف الألماني نيتشه شبه غدر الحياة بالمرأة : ( فالحياة شيء خبيث لعوب قد يخذعنا . فهي تارة تهزأ بنا ، وطورا تثير فينا الأمل وتحمل على الإقبال عليها . لعل أعظم سحر للحياة هو أنها منتقبة بنقاب ذهبي مصنوع من الآمال المعسولة الجميلة ، والممكنات الخلابه ، فتراها تعد وتتأبى وتدعى العفاف ، وترفع وترفق وتغوى . أجل، إن الحياة امرأة تثير في نفوسنا الشك، وتحملنا على الحذر منها وعدم الاطمئنان إلى صحبتها وحبها، ولكننا مع ذلك لا نستطيع إلا أن نحرض عليها ونقول لها : نعم .. بكل قوانا ) .

عبرت الكاتبة الفرنسية التي تسمت باسم جورج صائد ، عن غموض نفسية المرأة فقالت على لسانها: عرفت ثلاثة رجال ، أعطاني الأول عقدا من الجواهر الثمينة يعادل ثمنه مدينة بأسرها من مبانيها وقصورها. ونظم الثاني من أجلى ديوانا من الشعر فيه أجمل وأرق الكلام. والثالث تخجل الحسناء من جماله ، فكان يجثو أمامي راكعاً باكيًا ... ولم أعر هؤلاء أى اهتمام. أما أنت يا من أحبه ... فلم تعطني شيئا ، ولم تقل لى حلو الكلام، ولست جميلا، ولكنك أنت وحدك الذى أحبه .

وفي نهاية البداية ، قال الفيلسوف الأغرقي سقراط لأحد تلاميذه : «تزوج يا بنى ... فإنك إن رزقت بامرأة صالحة أصبحت أسعد مخلوق على وجه الأرض ... وإذا كانت شريرة صرت فيلسوفا». إن المرأة مثل النحلة ، فهي قد تعطيك «عسلا» أو تعطيك «لسعا» ، وكلتا الكلمتين لهما نفس الحروف ، ولكن تستطيع المرأة أن تغير في ترتيبها وفقا لمزاجها وظروفها . لقد خلق الله الإنسان في كبد ، وخلق الرجل لكي يجتهد ويكد ويتعب ، حتى يمكنه الحصول على العسل ، راجيا من الله ألا ينتهي صبره «بالعسل المر» .